بنية التشاكل والتضاد وآليّة الحجاج في المقامة الصوفيّة

مقامة " المواقف الروحيّة و الفيوضات السبوحيّة" للأمير عبد القادر الجزائري نموذجا

ط/د – سميرة رحيم

قسم اللغة والأدب العربي

المشرف:أ.د/ بلقاسم مالكية

جامعة ورقلة– (الجزائر)

الملخص:

رغم تعدد مظاهر الحجاج في اللغة ومحاولات تطبيق آليات الدرس البلاغي عليها من خلال البحث في التراكيب بين الحقيقة والمجاز، وما توصل إليه الباحثون من أهمية آلية الاستعارة في تفعيل التأثير اللغوي وتحويله إلى فعل منجز في الواقع، غير أنه لا ينفي أن تكون هناك آليات لغوية أخرى أكثر دقة وتداولا في الخطابات على تنوعها كما هو الشأن في بنيتي التشاكل والتضاد اللتين تمثلان محورا أساسيا في أي تركيب لغوي ينبني على طرفي خطاب متكلم ومتلقي. والخطاب الصوفي تحديدا يتطلب التدقيق في مختلف مكوناته على مستوى البنيتين السطحية والعميقة حتى يفهم أو بشكل أصح يقرأ، وحتى نتبيّن أهمية التشاكل والتضاد في حجاجيّة الخطاب الصوفي حاولنا تطبيق الدراسة على المقامة الصوفية للأمير عبد القادر الجزائري في كتابه " **المواقف الروحية والفيوضات السبوحيّة**".

الكلمات المفتاحيّة: خطاب، صوفي، حجاج، تشاكل، تضاد.

Abstract:

Despite the many manifestations of pilgrims in the language, And attempts to apply the mechanisms of the lesson of the rhetorical by looking at the structures between truth and metaphor,The researchers concluded the importance of the metaphor mechanism in activating the linguistic influence and turning it into an accomplished act in reality It does not deny, however, that there are other linguistic mechanisms that are more precise and deliberative in their diversity than in the structures of conflict and antagonism Which are a fundamental focus of any linguistic structure built on both ends of a speech by a speaker and a receiver. Sufi discourse specifically requires checking the various components at the level of the surface and deep structures so as to understand or correctly read, In order to discern the importance of conflict and conflict in the Sufi discourse; we tried to apply the study to Sufi Sufism of Prince Abdul Qadir al-Jazairi in his book "Spiritual Attitudes and Spirits".

Key word: pilgrims, discours, Sufi, linguistic.

مقدمة:

يشغل الدرس التداولي حيزا واسعا من اهتمام الدراسات والبحوث اللغوية الحديثة والمعاصرة، و يعود اهتمام الباحثين به إلى جمع هذا التوجه اللغويين عناصر الفعل الكلامي للجملة اللسانية في فهم الخطاب أدبيا كان أو علميا أو أيا كانت طبيعته، بالاستناد إلى معطيات العملية التواصلية خاصة المقام الذي يسهّل فعل التأويل في تحليل الخطاب وفق مبدأ القصدية[1].

و يعتبر مبدأ القصدية الذي تقوم على أساسه العملية التخاطبية بين المتكلم والمتلقي أهم قواعد التحليل التداولي، وذلك حين يجمع بينهما السياق الثقافي والاجتماعي والإيديولوجي، ليقدم معطيات محددة تؤطر طبيعة التلفظ وغاية الملفوظ[2]، ولعله في هذا الموضع تجب الإشارة إلى أنّ التداولية في بحثها لا تتوقف عند حدود اللغة الأدبية بل تتعداها إلى اللغة العادية؛ لأنّ غايتها التواصل اللساني الإنساني اليومي.

إنّ الميل إلى تحليل الخطابات في ضوء الدرس التداولي خاصة الخطاب الصوفي، يعكس رغبة الباحثين في الكشف عن عديد الجوانب النفسية والثقافية والذهنية المحيطة بإنتاجه؛ سواء منها ما تعلق برؤية المتكلّم للعالم ومدى قدرته على إيصال تلك الرؤية إلى المتلقي وإقناعه بها، أو من حيث تحديد وضعيات لغوية أوضح لإنجاح هذا التواصل، ولأنّ تاريخ التصوف العربي خاصة شاهد على حدوث كثير من مواقف العداء والرفض لوجود هذه الفئة في أوساط المجتمع كأمثال الحلاج وغيره من الباحثين في علم الحقيقة، حاول الدارسون للخطاب الصوفي تطبيق مختلف النظريات النقدية اللغوية النسقية والسياقية على نصوص المتصوفة لعلهم يكشفون مواضع القصد من كلامهم ومراميه حتى يتم لهم التوفيق بين ما يصدر عنهم من ملفوظ وما ينتظره المتلقي من معاني تشاكل طبيعته وفكره وعقيدته.

يقودنا البحث عن مضمرات القول في الدرس اللساني إلى الحديث عن آخر فلسفات البحث اللغوي الدلالي الذي أضحى قبلة أغلب الدارسين والمتخصصين، ولأن التداولية قد أعادت للخطاب مرونته في ظل ما يسمى مراعاة الحال واعتبار مقامات المتخاطبين وظروفهم النفسية والاجتماعية، تحول الاهتمام من تحليل بنية اللغة إلى قراءة بنية القول أو فعل التلفّظ كما يشير إلى ذلك بول ريكور في مؤلّفه " من النصّ إلى الفعل"، إذ لم تعد حدود الدراسة

اللسانية تتوقف عند تفكيك متتالية لغوية بقدر ما هي قراءة في تموضع طرفي الخطاب داخل سياق معيّن.

ورغم تفرع الدرس التداولي إلى تداوليات مثلما ينقسم القول حسب المقام إلى أجناس وموضوعات، فإن آلياتها الإجرائية والتجريبية لم تؤطر بشكل نهائي تزول به حيرة الباحثين، لأن ما وقع فيه البعض من حصر لأدوات التحليل التداولي سواء في الحجاج والبلاغة أو في البنيات التركيبية النحوية والصرفية لا ينفي أن مجالات التطبيق تبقى أوسع بحسب الفائدة المرتجاة منها، لذا أثار هذا الإشكال تساؤلنا فيما إذا كان لبنيتي التشاكل والتضاد قدرة على التأثير في فعل القول وفي فهم متضمناته؟ وهل تعتبر هذه البنية دالة للمتلقي أم أنّها تشكل عقبة من عقبات تلقّي الخطاب؟ وهل هناك دوافع محددة تلح على استخدامها أم أنها خيار اعتباطي للمتكلم؟ وهل استطاع الأمير عبد القادر الجزائري في مقامته الصوفية التي وردت في مقدمة كتابه " المواقف الروحية والفيوضات السبوحية" أن يقول ما أراد قوله بتركيزه على بنيتي التشاكل والتضاد أم أنه فشل في ذلك؟وهل لهذه البنية علاقة بالحجاج وتفعيله؟ وهل عبّر في المقامة عن تصوّره لعلم الحقيقة وما ينبغي للساعي فيهم كابدته للوصول إلى القبول والتذوّق أم لا؟

ثنائية التشاكل والتضاد وتفعيل الحجاج الصوفيّ:

إذا كان كل فعل إعلامي وصليا[3] لا يتجاوز حدود الإبلاغ في أية وضعية خطابية تجمع متكلما ومستمعا، فإنّ الفعل اللغوي التكلّمي[4] هو خطاب حجاجي يسعى المتلفّظ فيه إلى إقناع المتلقي والتأثير في سلوكه بتوجيه أو تحذير أو تهديد...وهكذا. ولأنّ الفعل التكلّمي حُجّي يتراوح فيه المتكلم في اختياراته بين التعدّد والتكرار والتجانس والتناقض، تتبدّى لنا ظاهرة التشاكل والتضاد التي كثيرا ما وقع التركيز عليها كواحدة من أهمّ العوامل الخطابيّة في التحليل الأسلوبيّ بقراءة دلاليّة غايتها تفكيك البنى التحتيّة للخطاب وتقليب أوجه التعبير التي انتقاها المتكلّم وهو ما سنحاول تجلّيه في مقامة "**الأمير عبد القادر الجزائري**" الصوفية،الواردة في مقدمة مؤلفه:" **المواقف الروحية والفيوضات السبوحية**"، ولكن من وجهة نظر تداولية لاعتقادنا بموافقة هذه الثنائية لمبدأ القصدية الذي تنبني عليه أسس الدّرس التواصلي التداولي، حيث تترجم اختيارات المتكلم لأفعاله اللغوية نيته التبليغية التأثيرية كما تترجم رغبته في توجيه سلوك المتلقي إلى غاية ما، تسوّغها طبيعة الخطاب الصوفي التربويّ مبدئيا الذوقيّ فعليّا.

1_بنية التشاكل:

يعدّ الخطاب الصوفي من أكثر الخطابات التي يلفّها التعقيد والغموض أحيانا بسبب ميل أصحابه إلى الاختباء وراء مفرداتهم وعباراتهم خوفا من التصريح بما يجدونه في سبيل تخلصهم من شوائب العالم الترابي السفلي، فتتنوّع اختياراتهم اللغويّة وتتشابك أحيانا لتحقّق أهدافا قد تكون معلنة أو غير معلنة. كهذا الخطاب الذي اتّسم بالاتّساع الدلالي والزخم اللّغوي الواضح عند مؤلّف "**المواقف الروحيّة و الفيوضات السبوحيّة**"الأمير عبد القادر الجزائري، حيث أقام جزءا كبيرا من خطابه على أساس من التشاكل الصوتي والصرفي بل حتّى التركيبيّ؛ حين جسّد إحدى صوره في تعدّد التجانس والتماثل اللغوي أو ما يسمّى بالتشاكل، وهو مصطلح أورده الباحث محمد عبد العزيز عبد الدايم في كتابه "**النظرية اللغوية**"معرّفا إيّاه بـ: " وجود وحدات مختلفة تجمعها علاقة واحدة، كأن تتقابل صيغ على طرفي علاقة الاشتقاق والتصريف"[5]، فالطرف الأوّل وهو الاشتقاق نجده حاصلا بين الفعل والاسم كالمصدر أو اسم الفاعل أو اسم المفعول أو الصفة المشبّهة وهكذا، والثاني– أي التصريف– يقع في الاسم بين الإفراد والتثنية والجمع، هذان الوجهان للتشاكل أقاما بناء الفقرة الأولى من نص المقامة الصّوفيّة؛ فاستعمل صاحبها الجذر (ح ض ر) بصور متنوّعة من الفعل والاسم والمفرد والجمع، ثمّ صاغ بقيّة عباراته على النحو المذكور؛ قائلا:" حضرت محاضرة من محاضرات الشرفا، ومسامرة من مسامرات الظرفا، في ناد من أندية العرفا"[6]، فهذا التشاكل القائم على الاشتقاق يعكس نية المتكلّم في تحديد الإطار المكاني والزماني لفعله التكلّمي ليتسنّى له الاستحواذ على فكر المتلقّي وتوجيه مخيّلته إلى ما يريده المخاطب، وذلك حين انتقل من صيغة المفرد إلى الجمع في اختيار خفيّ لنوع الحضرة وموضعها، وهو مكمن الحجّة التي يقيمها أيّ متكلّم ينبني خطابه على الحكاية حتّى وإن كانت واقعة بالفعل، فحين يرتسم الحيّز الذي ستتفاعل فيه الأفعال اللغوية والسلوكات الناتجة عنها باعتبارها أفعالا إنجازية تأثيرية، يسهل على من ينتج تلك الأفعال سوق حججه إلى المتلقّي ليتقبّلها، ويكون بذلك قد أنجح الإطار الخطابي وفعل التواصل الذي يكون قد خطط له مسبقا تحت معطيات معينة يحكمها مقام القول.

لا تتوقّف بنى التشاكل صرفيّا عند حدود الفاعل والمفعول بل تتعدّاه إلى مواضع التباين الاجتماعي بين إفراد وتثنية وجمع، فللمقام دور غير خفيّ في قدرته التأثيرية على

المتلقّي، الأمر الذي أتاح للأمير "عبد القادر الجزائري" أن يهيئ الظروف المناسبة لتقبل مقامته، وما حشده الكاتب من مفردات مثناة ومجموعة كان مناسبا لتأطير خطابه، فالحضور في الخطاب الصوفي كونه فعلا لغويا منجزا يفترض التموقع داخل حيّز الخطاب من جهة، وانضمام المتلقّي إلى زمرة المتذوّقين من أهل المعرفة في الحضرة الإلهيّة من جهة أخرى. إنّه حضور المتعة التي يشتاق إليها كل مريد، لذا زاد المؤلّف من قوّة أفعاله اللّغوية بتحويل تلك المحاضرة التي تستدعي الاستشعار بالظّرف المحيط مكانا وزمانا إلى نشوة ذوقيّة ممتعة حين عبّر عن ذلك بلفظة (مسامرة) والتي جعلها الكاتب بديلا حجاجيّا مقنعا للمستمع المتطلّب لحال الاستمتاع والشوق، فقد قام المؤلف من خلال ذلك التشاكل اللغوي بين صيغتي المفرد والجمع في كل من ألفاظ:(محاضرة–محاضرات)، (مسامرة– مسامرات) و(ناد–أندية) بمحاصرة المتلقي ودفعه إلى الاستسلام أمام مغريات ما سيلقاه في حضرة المتكلم من أنس وألفة ومتعة وهي أحوال ومقامات يرتاض بها الساعي إلى الحقيقة وهنا يتضح المنهج التعليمي التربوي للأمير عبد القادر الجزائري في سلوكه الصوفي.

إنّ الانتقال السلس من صيغة المفرد إلى الجمع يعكس من جهة أخرى نزعة الصوفيّ المريد إلى الانغلاق على ذاته والابتعاد عن مجتمعة الذي لا يزال غير راض عن سلوكاته الغريبة في نظر الجماعة، إنّه شكل من أشكال الهروب من الواقع المنبوذ الذي يعجز عن تحقيق غاية الصوفي في التلذّذ بالقرب والوجد من المحبوب.

والتشاكل صوتيا كان أو صرفيا هو أيضا صورة من صور الثنائية التي تتجاذب الإنسان في تكوينه بين روح وجسد، كما هو زاوية انطلاق لرؤيته إلى العالم حوله. و لقد عبّر الأمير عبد القادر الجزائري عن هذه الثنائية بشكل عفوي حين شكّلت لديه بنية تكامل بين السلب والإيجاب، الرفض والقبول أو الجموح والانصياع، فلا يتم العلم حقيقة إلا إذا جمع هوى المرء و عقله.

تلك العفوية لا تعني نفي الانتقاء اللغوي، فالصوفيّ حين يتكلم يتوفّر على كل سمات القصديّة في كلامه و إن كان مأخوذا بحال الوجد من الواقع المعيش، إنّه لا يفقد كامل وعيه بل يتأرجح بين ما يحسّه ويعيش فيه. لهذا يختار الصوفي المتكلّم ألفاظه وفق نسق محدّد وهو انتقاء:" يتضمّن آليا الإقصاء، وذلك الشيء الذي يقصى يبقى على الهوامش كمجال احتمالي من الروابط، والقارئ هو الذي يكشف عن شبكة العلاقات الممكنة"[7]وهذه الشبكة العلائقيّة تبقى

محدودة بتوجيه من المتكلّم، حتى لا يقع خطابه في خطر التأويلات اللامحدودة ممّا يشير في كثير من الأحيان إلى فراغه من المعنى أو الهويّة الدلاليّة.

من صور التشاكل الصرفي أيضا نجد صيغتي اسم الفاعل واسم المفعول اللتين تواتر بسطهما في المقامة بحيث أورد الأمير عبد القادر الجزائري هذه الصيغة حين استغرقه الحديث عن جوهرته المفقودة، وغايته المنشودة؛ فقال:" إلى عين هذه المعشوقة التي هي غير مرموقة، المعلومة المجهولة، المغمودة المسلولة، الباطنة الظاهرة، المستورة الساترة"[8]، فهذا الوصف الذي تراوح بين الظهور والخفاء هو حقيقة التصوّف باعتباره تجربة ذوقيّة يصعب تحديد ملامحها، وتأطير معايشتها بسبب خصوصيتها و دقّتها إلاّ بالمعايشة الفعليّة لهذه الرياضة التربويّة الروحيّة.

يتجاوز حال الوجد والسلب في الحضرة الصوفيّة الشيوخ والمريدين إلى جميع الحاضرين رغبة أو حتى فضولا فنجد زخم أسماء الفاعلين يستغرق المتلقّي بأيّة صورة كان والمتكلّم في هذه الحال لا يسعى إلى مجرّد التواصل معه بل يهدف إلى استمالته ليتحوّل بدوره إلى مريد طالب الدربة والتعلّم، إنّه نوع من التأثير الروحيّ الذي لا يمكن مقاومته حين ينطلق من الفضول بداية ويصل إلى الحلول في حضرة الوجد والشوق نهاية المطاف؛ فيقول:" فرأيتهم بين سادم باهت، لا هو بالحاصل ولا الفايت، وبين حاير واقف، التبست عليه المواقف"[9]، والحيرة التي يقع فيها الداخل إلى الحضرة ناتجة عن كونها مخالفة لواقع العامّة من البسطاء في سلوكاتهم وتصرّفاتهم. وبهذا الوصف يهيئ المتكلّم مخاطبه لقبول الواقع الجديد في نوع من تخفيف الصدمة، وهذه مسؤولية الشيخ أمام مريديه فعليه أن يأخذ بأيديهم ويسهّل عليهم كل الصعوبات التي قد تثنيهم عن متابعة السلوك.

و إذا اعتبرنا التشاكل الصرفي بكل صوره صيغة برهنة وحجاج لأنّه يثبت الطبيعة البشرية في طلب التوازن والوسطيّة عن طريق تدرّج الانتقال في سلّم التأثير الذهني من خلال التلاعب بصور اللفظ في اللغة زيادة ونقصانا بما:" استدعته الوظيفة الحجاجيّة للغة وبالتالي رقيّ وقع الكلمة من خلال موقعها في السلّم الحجاجي؛ إذ الانتقال من صيغة إلى أخرى بما يقتضيه هذا الانتقال من زيادة إنّما هو في الحقيقة انتقال من درجة إلى أخرى"[10]، فالأمير عبد القادر الجزائري استغل هذه الطبيعة ليكون أكثر إقناعا وتأثيرا بل يحاول أن تتحوّل تلك البنية إلى فعل واقع.

لقد تحوّلت لغته في المقامة إلى قرع للأصوات المتقاربة المخارج والتشكيل الصرفي من اسم فاعل واسم مفعول وكأنّه يوحي إلى المتلقّي بأنّه لا مفرّ من أن يصل إلى الغاية ذاتها التي حدّدها له المتكلّم:

معشوقة ← مرموقة

طامحة ← جانحة ← طافحة طامحة. ←

تلك الغاية هي انقلاب للمفاهيم الظاهرة بغلبة الفاعل على المفعول والظاهر على الباطن، فبعد الصراع الذي بسطه الأمير عبد القادر الجزائري وعاناه في بحثه عن معشوقته المعلومة المجهولة بلغها حين رأى ذاته واكتشف أنّها:" أنا، ويتبيّن لي أنّني الطالب والمطلوب، والعاشق والمعشوق"[11].

لعلّ الذي يلفت انتباهنا أكثر في التشاكلات الواردة في الفقرة الأولى من نص المقامة الأميرية هو الانتقال اللطيف السلس من الواقع المادي المحسوس إلى عالم الحقيقة، وهو العالم الذي تنتفي فيه الذوات وتتلاشى أمام ذات أكبر وأخطر لا يحدّها حدّ و لا يستوعبها فكر ولا قلب:" لأنّ حقيقة معرفته لا يطيقها الخلق، ولا ذرّة منها؛ لأنّ الكون بما فيه يتلاشى عند ذرّة من أوّل باد يبدو من بوادي سطوات عظمته، فمن يطيق معرفة من يكون هذا صفة من صفاته؟ فلذلك قال القائل: ما عرفه غيره ولا أحبّه سواه، أنّ الصمديّة ممتنعة عن الإحاطة والإدراك"[12]، فالمريد ينتفي أمام شيخه والشيخ ينتفي بدوره أمام معشوقه. هنا عبر المؤلف عن مرحلية التلاشي والتدرّج في الانتفاء بالذات حين انتقلت أفعاله الكلامية من دور الاستقطاب إلى دور الإيحاء. والإيحاء مدخل إلى التخييل الذي يدفع كثيرا منا إلى الاقتناع بقضايا قد لا نراها مجسّدة في الواقع بقدر ما هي أحاسيس تتراءى في أذهاننا وعقولنا الباطنة فـ:" الحجاج يجد في الغموض أرضيّة خصبة، لأنّ الحقيقة عندها لن تكون واحدة أو لا يمكن الحسم في شأنها...لذلك ذهب كلّ من نظّر للحجاج إلى تأكيد شدّة حاجتنا إليه في عالمنا هذا لأنّه غموض على غموض"[13].

أمّا عن صور التشاكل الصوتي الماثلة أغلبها في السجع والجناس الناقص، والحاضرة حضورا بارزا في المقامة كان لها الأثر البالغ في تكريس مظاهر الحجاج، وهي المظاهر التي نجزم بأنها لا تتوقف عند حدود توصيل الدلالة إلى مسمع المتلقي بقدر ما هي ماثلة في ذلك الجرس الصوتي الذي يصاحبه مدة زمنية غير وجيزة،ليتحول هذا الصدى إلى متكلم خفيّ

داخل ذات المستمع فيقع التبادل الخطابي في الأدوار بين المتكلّم والمستمع بناء على هذه الوضعية ويتحقق بفعلها مفهوم الحجّة الحيّة، من هنا كان اختيار أصوات بعينها نوعا من الإلحاح الحجّي الطويل الأمد، فمؤلّف المقامة لم يتوان عن تكرار الأصوات المتقاربة في مختلف فقرات النص باحثا بذلك عن التأثير النفسي في المتلقي. حين نتوقف عند فواصل من مثل قوله: " فجاءوا في سمرهم بكلّ طرفة **غريبة**، ومستظرفة **عجيبة**، وكان الحديث **شجونا وألوانا وفنونا**"[14] نعلم أنّ المتكلم يستميل المستمع بأذنه قبل فكره، حتّى إذا استمكن منه تحولت تلك العبارات بفعل قدرتها الاستدلالية الحجاجية الكامنة في ميل الإنسان بطبعه إلى الطرب حالا، وفي الوقت نفسه إحاطة المتكلم بهذه المعطيات إلى أفعال منجزة سلوكيا تجسدت في صورة الإذعان للمتكلم والتسليم بأقواله ومعتقداته منذ البداية فيقول:" يطير النّاس إليها كلّ مطار، ويرتكبون الأخطار، ويستعذبون دونها الموت الأحمر، ويركبون لطلبها المكعّب الأسمر، ولا يصل إليها إلاّ الواحد بعد الواحد في الزمان المتباعد، فإذا قدّر لأحد مشارفة حماها، ومقاربو مرماها، ألقت عليه إكسيرا لا له مادّة ولا مدّة، ولا عين معتدّة"[15].

ولأنّ الترنّم لسماع ترتيبة معينة وإيقاع محدّد له الأثر البالغ في توجيه السامع بفكره نحو موضوع ما، ركّز الكاتب الأمير عبد القادر الجزائري على صوت المتكلم (الأنا) في موضع الوصول وكانت الياء الممتدة بعمقها وسعتها وصداها خاتمة لبحثه عن الحقيقة فيتحول الجميع متكلما ومستمعا إلى (أنا) التي لا يخالطها ريب:" فما كان هجري للذّاتي إلاّ في طلب ذاتي، ولا كانت رحلتي إلاّ في نحلتي، ولا وصولي إلاّ إليّ، ولا تفتيشي إلاّ عليّ، ولا كان سفري إلاّ منّي فيّ إليّ"[16].

يبرع المتكلّم في هذه المقامة في استخدام كلّ الوسائل المتاحة له قصد تغيير فكر المتلقّي بما يسوقه إلى التسليم بسلوكه والاعتقاد بمذهبه في التصوّف، واستغلال شهوة المرء في المتع بأنواعها سبيل إلى التحكّم فيه؛ كذلك الأمير عبد القادر وظّف حاجة المستمعين إلى التمتّع بتناغم الكلمات في تملّك أذهانهم و أفئدتهم فأغرق في استعمال الجناس الناقص خاصّة وكأنّه التنويم المغناطيسي الذي يلجأ إليه المعالج النفسي ليخرج مكنونات مريضه، مع التنويع في طرق التجنيس بين تغيير في بعض الحروف أو الانتقال في الحركات من كسرة وفتحة ضمّة فيقول:" ويجهّلونه ولو كان أعلمهم، ويسفّهونه ولو كان أحلمهم، ويستبيحون منه العِرض، في الطّول والعَرض، ويجعلونه مرمى غمزهم ولمزهم، ونبزهم ووكزهم"[17].

يصبح التشاكل الصوتي بين المفردات في هذه المقامة أحيانا كثيرة مبعثا على الإلحاح و نوعا من الإكراه على تقبّل القول واعتقاد الفكرة، فتكرار المعاني إلى جانب تكرار الأصوات المتقاربة بين الألفاظ في متتالية من العبارات والجمل حصار للمتلقّي لا مفرّ من الاستسلام أمامه كما في قول مؤلّف المقامة:" وطريق مطلوبك دارسة، وأعلامها دارسة، بحرها تيّار وهواؤها نار، وأرضها مفاوز قفار"[18].

لقد كان لتوظيف بنية التشاكل الصرفي والصوتي في مقامة الأمير "عبد القادر الجزائري" طعم خاص حيث انتقل بسمع القارئ إلى مرحلة التذوق القسري التي لا يستطيع أيّا كان أن يتهرّب منها عند اطّلاعه عليها، إنّها قدرة الاستحواذ والسيطرة على المتلقي بعقله وروحه، وهنا يتجلّى الشيخ الصوفي المربّي الذي يأخذ بيد مريده طالب السلوك في الطّريقة إلى حيث الحقيقة قريبة رغم غموضها وتلاشيها ظاهرا.

2_ بنية التضاد:

أمّا إذا تحوّلنا إلى دراسة ظاهرة التضادّ التي سيطرت على كثير من فقرات المقامة بشكل لافت؛ والتي ترجمت جانبا من بحث المتكلّم عن الحقيقة الذوقيّة في علم القوم. فجمعه بين الوحدات المتقابلة من عباراته إنّما أراد به تمرير تصوّر للمستمع بأنّه لا مجال لأن ينكر ما سيأتيه به من تعريفات وحدود في فهم حقيقة التصوّف؛ إنّها الحقيقة التي لا تتم إلاّ بالرياضة والمجاهدة بل المعايشة المباشرة لهذه التجربة الروحيّة، فلا يكتفي المرء بمجرّد السماع أو القراءة عن هذا المجال حتّى يبني تصوّرا متكاملا سليما عنه ولعلّه السبب المباشر الذي يفسّر كثرة المنكرين المعادين لهذه التجربة الروحيّة الغامضة.

تبدأ عملية البحث عن الحقيقة التي هي محجّة كل مؤمن عند الأمير "عبد القادر الجزائري" في مقامته من خلال الطّباقات القائم وفقها نسيج النص، وهي طباقات في صورتيها السالبة والموجبة يسعى بها صاحبها إلى التأثير في فكر المتلقي وموقفه من الموضوع، فالمتكلّم حين يتموضع في الخطاب تكون غايته الأولى تضييق الخيارات الفكرية لدى السامع حتّى يسلّم له بما يقول ويعتقد، لا من باب الإكراه إنّما بالإقناع وتسليم الرضا في أمهر صور المحاججة والتواصلحين يقول:" رأيت وما رأيت، وما رميت إذ رميت"[19]، وهي حالة تترجم تمحور المتكلّم حول ذاته في انطلاقه منها وعودته مع المستمع إليها، فحين يحشد المخاطب مفردات متقابلة من نحو: (معلومة–مجهولة)، (مغمودة – مسلولة)، (باطنة– ظاهرة)،

(مستورة– ساترة)، (الطالب– المطلوب) إنّما يريد بذلك تأكيد إحاطته بالعلم الذي يجاري فيه القوم والمستمع معا، كما أنّه يهدف بهذا التقابل إلى سوق المتلقي إلى معنى وحيد لا غيره وهو تفرّد حقيقة علم الحقيقة واستحالة إيجاده في الظاهر المعلوم ولا في الباطن المجهول إذ القوم من أهل السلوك:" لا يلاحظون حركة من حركاتهم الظاهرة والباطنة يوماً إليها في الحقيقة إلاّ وهي منطمسة تحت سلطان القدرة وإنفاذ المشيئة، وإن أضيفت إلى المضاف إليه"[20]بل هو ماثل في كلّ شخص في ذاته حتّى وإن حاول إنكاره المنكرون أو اختلف فيه المشكّكون:" فمنهم من سلّم وأنصف، ومنهم من ألحّ وتعسّف"[21].

لذا ألزم المتكلّم نفسه في المقامة بالردّ على فئة المنكرين المشكّكين بإثبات عقليّ؛ من خلال بحث كلّ شخص في ذاته عن المعاني التي بسطت عليه وجرّه إلى خوض تجربة الذوق الروحيّ بوعيه، حتّى إذا بلغ إلى موضع إيجاد تلك الذات المنشودة يكون قد وقع على الحقيقة المتعلّقة بالمعرفة التي هي:" على ثلاثة أوجه: معرفة إقرار، ومعرفة حقيقة، ومعرفة مشاهدة؛ وفي معرفة المشاهدة يندرج الفهم والعلم والعبارة والكلام"[22] أي يكون قد لامس حقيقة العلم بوقوع الحجّة عليه من نفسه. و هذا ما عبّر عنه صاحب المقامة حين قال: " فما كان هجري للذّاتي، إلاّ في طلب ذاتي، ولا كانت رحلتي إلاّ لنحلتي، ولا وصولي إلاّ إلي، ولا تفتيشي إلاّ عليّ، ولا كان سفري إلاّ منّي فيّ إليّ"[23].

يمثل التضاد في هذه المقامة جانبا من الصراع الذي يعيشه الباحث عن الحقيقة في ذاته ومع غيره، حتّى إنّ الأمير عبد القادر الجزائري يراوح بالمستمع مكانه في تقابل تركيبي تتواجه فيه الكلمات مثبته ومنفية لتجسّد هول ما يعانيه المريد الصوفيّ الباحث عن الحقيقة فيقول:" رأيت وما رأيت، وما رميت إذ رميت"[24]إنّها دهشة الشهود التي يصبو إليها كل عارف.

لا يمكن الجزم دوما بأنّ كل تضاد يقع في نصّ ما هو انعكاس للبحث عن الحقيقة أو توضيحها، فقد يتحوّل إلى دليل تشويش وبلبلة يقع فيها المتكلم، إلاّ أنّ هذا الحكم لا ينطبق على ما جاء في مقامة الأمير عبد القادر الجزائري لأنّه أتى فيها على أكبر قدر من التقابل الدلالي الذي اعتبره برهانا له أمام المستمع، بل بلغ به الحدّ من الحجاج أنه أخذ يراوح التراكيب بحيث تدرك شتى الفئات التي تتلقّى خطابه أنه يعي ما يقول و يعتقد، فيتحوّل بتقابله إلى نوع من الكرّ والفرّ في عدة مواضع منها قوله:" ويجهّلونه ولو كان أعلمهم، ويسفّهونه ولو كان أحلمهم، ويستبيحون منه العرض، في الطول والعرض"[25] وكأنّه في هذه الحال يعنّف

سامعيه من المريدين أو الأعداء على اعتقادهم الخطأ في فكره أو اللّغو في حديثه. في مثل هذا النوع من الخطابات يحق للمتكلم توقع ردة فعل المتلقي فيبني عليها خطّة خطابيّة سلفا يوظف فيها شتّى أسلحته اللغوية، التي اختار منها الأمير التقابل الدلالي أو التضاد.

الخاتمة:

نخلص بعد القراءة الوجيزة التي أتيحت لنا في نصّ مقامة الأمير عبد القادر الجزائري الواردة في مقدّم مؤلّفه "المواقف الروحيّة والفيوضاتالسبوحيّة" والذي هو في مجمل مضامينه كتاب في التصوّف،إلى عدد من النقاط أهمّها:

1. أنّ ما جاء في المقامة هو بدرجة كبيرة حالة ذوقية غلبت على صاحبها حاول فيها جمع أطراف تجربته الصوفية، كما حاول أيضا أن يعرض تصوّره الخاصّ عن تلك التجربة التي لا تخلو من غموض وتعقيد لا ينجلي إلاّ للمتمرّس في الطريقة، إلاّ أنّ المحاذير التي أشار إليها في علم القوم نابعة في مجملها من جهل الكثيرين بعلوم الشريعة، حيث قد شدّد التعنيف على الخوض في هذه التجربة دون إلمام حقيقي بتلك العلوم لما فيها من حدود تحفظ طالب السلوك من الوقوع في الخلط والضلال.
2. أنّ التجربة الصوفيّة تستلزم في طالبها أن يكون حكيما ملمّا بشتى العلوم والفنون، سواء منها الدينيّة أو الدنيويّة، حتى يتسنّى له التمييز بين ما صحّ الأخذ به وما لم يصحّ ببصيرة نافذة وعقل واعٍ، وفي هذا إشارة إلى المتطفّلين المدّعين بهذا العلم الآخذين بظواهر الأمور قصورا منهم وسذاجة.
3. أنّ الحجاج اللّغوي لا يتوقف عند التركيب بمعناه الواسع نحويّا وبلاغيّا، بل يمكن أن يتحقّق الحجاج في الصوت إذا أحسن المتكلم النفاذ منه إلى المتلقّي، فقد يستغني المرء في خطابه عن تعقيد الصورة البلاغية ليحقّق حجّيّته، حيث يتوهّم الكثير أنّ العبارة التي تخلو من التخييل تفقد بلاغتها و أحيانا قصديّتها الاستدلاليّة غير أنّ التركيز على قراءة التشاكل الصرفي والصوتي يؤكّد توفّر الحجّة في أصغر مكوّن للكلمة حتّى قد يصل التأثير الحجاجي إلى درجة الصمت وهو ما اتفق عليه الحكماء بقولهم:" الصمت حكمة".
4. يمكن للتضاد أو التقابل الدلالي إذا كثر في نصّ ما أن يؤدّي إلى غموضه أو على الأقلّ ابتذاله، غير أنّ هذه البنية في الخطاب الصوفيّ تحديدا تمثل ضرورة للمريد المبتدئ حتى ترسم له حدود الطريقة ومفاهيمها باعتبارها قواعد ومبادئ لا يحقّ له الحيد

عنها، فيعمل الشيخ المربّي على إزالة العوائق التي تعترض طريق المريد، خاصّة ما خفي منها لاشتباهها بالحقائق ومخالطتها دقائقها.

و إذا كان بحث الدارسين للّغة وعلومها في مختلف التوجّهات اللّسانية لم يغفل أهميّة انتقاء الوحدات اللّغوية من أصوات ومفردات في تحقيق البعد الدلالي والجمالي لأيّ خطاب، فإنّ الدرس التداولي في محطّة الحجاج لم يستثن بدوره أيّ مكوّن لذلك الخطاب وحقيقة تأثيره المباشر وغير المباشر في تحديد مسار التواصل وتموضع طرفي العمليّة التبادليّة صوتيّا وذهنيّا، من المعاني والأفكار التي تعكس معتقدات وأيديولوجيّات متباينة أو متكاملة. وثنائيّة التشاكل والتضاد جزء من تلك المكونات اللّغوية التي حققت هذه البنية التواصليّة الحجاجيّة.

الهوامش

1– ينظر: جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة،كيف ننجز الأفعال بالكلام،ترجمة عبد القادر قينيني، دط، 1991م، ص9.

2_ ينظر: جون أوستين، المرجع نفسه، ص:136.

3_ ينظر:طه عبد الرحمن، اللسان والميزان العقلي، أو التكوثر العقلي،المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، ت 1998م، ص:254.

4– ينظر: طه عبد الرحمن المرجع نفسه، ص:254،255.

5_ محمد عبد العزيز عبد الدايم: النظرية اللغوية في التراث العربي،دار السلام للطباعة والنشر، مصر،ط1،ت2006م،ص120، 121.

6– الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، اعتنى به عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، ت2004م، ج1، ص: 28.

7_ فولفغانغ آيزر: فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب، ترجمة: حميد لحمداني، جيلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل_ فاس،دت، دط، ص:79.

8– ينظر طه عبد الرحمن، التواصل والحجاج، سلسلة دروس بجامعة أغادير كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص9، 10.

9_ الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، ج1، ص 28.

10_ الأمير عبد القادر الجزائري: المصدر نفسه، ص 29.

11_ عز الدّين الناجح: العوامل الحجاجيّة في اللغة العربيّة، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ط1، 2011م، ص 126.

12_ الأمير عبد القادر الجزائري: المصدر نفسه، ص:28.

13_ أبو نصر عبد الله السراج الطوسي: اللمع في تاريخ التصوّف الإسلامي، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقيّة، مصر، دط، دت، ص: 40.

14_ سامية الدريدي: الحجاج في الشعر بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2، 2011م، ص: 62،63.

15_ طه عبد الرحمن: التواصل والحجاج، ص: 9،10.

16_ الأمير عبد القادر: المصدر نفسه، ص:28.

17_ الأمير عبد القادر: المصدر نفسه، ص:28.

18_ الأمير عبد القادر: المصدر نفسه، ص:28.

19_ الأمير عبد القادر: المصدر نفسه، ص:29.

20_ الأمير عبد القادر: المصدر نفسه، ص:29.

21_ الأمير عبد القادر: المصدر نفسه، ص:28.

22_ الأمير عبد القادر: المصدر نفسه، ص:30.

23_ الأمير عبد القادر: المصدر نفسه، ص:28.

24_ الأمير عبد القادر: المصدر نفسه، ص:28.

25_ الأمير عبد القادر: المصدر نفسه، ص:29.